كلمةُ جامعةَ حلب

ألقاها الأستاذ الدكتور عيسى العاكوب

عضو مجمع اللغة العربية

السيّد الأستاذ الدكتور رئيس المجمع

الفضلاء السّادة أعضاء المجمع

أسرة الفقيد

الضّيوفُ الأعزّاء

الجمهور الكريم

السّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته

أمّا بعدُ، فأذنوا لي أوّلًا بأن أشكر للسيّد الأستاذ الدكتور نضال شحادة، رئيسِ جامعة حلب، تكليفي تمثيلَ جامعة حلب العزيزة في هذه المناسبةِ، كما يستدعي المقامُ أن أشكر لمجمعنا الكريم دعوته إيّاي لتقديم هذه الكلمة. أمّا المناسبةُ التي جمعتنا في هذا المكان فعلى قدر كبير من الأهمّية؛ لأنّها ضربٌ من الاحتفاء بالفكر والأدب والمعرفة، أو قُلْ بالآداب والعِلْم والحِجا كما يقول الشاعرُ العربيّ:

وما تنفع الآدابُ والعِلْمُ والحِجا وصاحبُها عند الكمال يموتُ

ويدلّنا على أنّها احتفاءٌ بالعقل والإنتاج والنّفع مجيئُها غالبًا تتويجًا لحصاد العمر وثمرات الفِكْر ومحاصيل الكفاح والعنَت والسَّهَر.

وتصطبغُ أمثالُ هذه المناسبات بالوفاء؛ الذي يعني استمرار إجلال الأحياءِ لأصحاب المآثر والمنجَزات حتّى بعد ذهاب أجرامهم. وحين يكون التكريمُ من الجامعة لأحد أساتذتها يكون نمطًا خاصا من التكريم؛ نمطٌ يعبِّر عن إحساسٍ بحقٍّ معلومٍ أملاه

عطاءٌ علميٌّ وتربويّ يثمر مواطنين صالحين؛ محبّين لوطنهم، متمكّنينَ من أدوات تطويره والارتقاء به إلى حيث القوّةُ والمَنَعةُ والفعلُ الخلّاق المبدع.

وتدركُ جامعةُ حلب أنّ المرحوم، الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر، كان في المقام الأوّل أستاذًا في قسم اللّغة العربيّة من جامعة دمشق، لكنّ فيض عطائه انداح ليشمل الكثيرين من طلبة العِلْم في جامعة حلب، في الدّراسة الجامعية الأولى، وفي الدّراسات العليا في قسم اللّغة العربيّة، وفي ترقيات أعضاء الهيئة التدريسيّة في هذا القسم.

وتدرك جامعةُ حلب، إضافة إلى ذلك، أنّ الفقيد ظلّ حتّى لقاء وجه ربّه سراجًا وهّاجًا في فضاء الحياة الثقافية في سورية الحبيبة كلّها، وفي ديار العروبة الأخرى؛ وأنّه تقديرًا لهذا الفضل رشّحه قسمُ اللّغة العربيّة في هذه الجامعة ومجلسُ الجامعة لإحدى الجوائز الثّقافيّة العربيّة الكبيرة، قبل ثلاث سنوات.

أيّها الأحبّة

يعني التأبينُ في العربيّة «الثّناءَ على الشّخص بعد وفاته»، ويُبلورُ هذا الموقفُ حالةً فكريّة لا يُحتاج إليها غالبًا قبْلَ الوفاة؛ فهذا النوعُ من الغياب فرصةٌ لتأمّل سيرة المؤبَّن لاستنباط لحظات النّجاح والإشراق وإسداء الفضل في هذه السّيرة. فهل في وسعنا أن نقول إنّ الموتَ يأذن لنا بقراءة كُتبٍ، وتأمّل سِيَرٍ، لا تأذن لنا الحياةُ بقراءتها وتأمّلها. أو نقول، في مقابل ذلك، إنّ الحياةَ لا تأذن بقراءة كتب أعمال الأحياء؟.

وإذا صحّ ذاك وهذا، فما أحوجَنا إلى أن نستشعر موتَ الأعلام والمنجِزين قبل موتهم لنكون أقدرَ على قراءة إنجازهم القراءةَ البريئة الصحيحة. ويحتاج المرُء في السياق الذي نحن فيه إلى القول: كم هو كبيرٌ مقدارُ الجهد الذي علينا أن نبذله لكي نتحرّر لحظةً من نفوسنا الأمّارة لكي نرى إنجازَ الأحياء الذين يعيشون بين ظهرانَينا.

أيّها الأعزّاء

غربت شمسُ الدكتور الأشتر عن سماء الحياة الثّقافيّة في سورية وفي ديار العروبة، لكنّ أَلْقها سيستمرّ زمنًا طويلًا؛ لأنّ ديدنَ شموس العِلْم أن تُطيلَ أمدَ النّهار، وتمنحَ أبناءَ الأمّة وقتًا أطول لإبصار الأشياء على حقيقتها. وإذا كان قسمُ اللّغة العربيّة في جامعة حلب قد ودّع أعلامًا من الأساتذة من أمثال الدكتور محمد صبري الأشتر والأستاذ محمد الأنطاكي والدكتور محمد حموية والدكتور عصام قصبجي، وأخيرًا الدكتور عبد الكريم الأشتر، فإنّ أفواج المتعلّمين على هؤلاء الأساتذة ستظلّ تردّد ما قاله الشّاعر:

لولا الجذورُ المطمئنّةُ في الثّرى ما كانتِ الأغصانُ ترفعُ هامَها

ولعلّ في هذه الحقيقة ما يعزّي أهلَ العِلم الذين لم يُرزَقوا أبناءَ أرحامٍ؛ إذ هيّأ لهم المولى سبحانه أبناءَ عقولٍ وأحفادَ فِكر. وإنّ مزارَهم الحقيقيّ في صدور العارفين.

وكم هو مناسبٌ أن نردّد على الأسماع في هذه المناسبة ذلك البيتَ الذي قاله شاعرٌ كبير بالفارسيّة:

بعد از وفات، تُربتِ ما در زمين مجوى

در سينه هاى مردمِ عارفْ مزارِ ما ستْ

ومعناه:

بعد مُضيّنا من هذه الفانية، لا تبحثْ عن مَرْقَدِنا في التّراب

ففي صدور العارفينَ مزارُنا ومُقامنا

تلكم، إذًا، حالُ المنجِزينَ في الفكر والأدب والثّقافة، وذلكم هو الموقفُ منهم بعد مغادرة هذه الدّنيا إلى دار الدّوام والبقاء.

أيّها الأحبّة

يقولُ أجدادُنا إنّ العِلْمَ رَحِمٌ بين أهله، وها نحنُ اليومَ نَصِلُ هذه الرَّحِم، ونعيدُ إلى الأذهان بقدرٍ من التّجلّة ذكرى الأحبّة الذين غادرونا من دون توديع. غادرونا وتركوا لنا من ومضات عقولهم زادًا معرفيا نعود إلى مائدته نحنُ وأجيالُنا القادمة.

فباسْمِ جامعة حلب أقولُ: سَقْيًا ورَعْيًا لعهد مَنْ نحن في حضرة تكريمهم، ونضّرَ الله سبحانه ثراهم، وأجزلَ لهم المثوبة. وباسم جامعة حلب أيضًا، أشكر لمجمع اللّغة العربيّة هذا الصّنيعَ الميمونَ الذي جاء تقديرًا لخدمة العربيّة وإعلاء كلمتها وارتقاء شأنها. والله، سبحانه، هو الهادي إلى حسَنِ القول والعَمَل، و«إنّا لله وإنّا إليه راجعون». والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.